

وقد كانت الأسرتان
في عهد «جوري» والد
جبريل وعهد والد إيفان
على صلات حسنة؛ فاذا
احتاج النساء في أحد
المتزلين إلى غرابال أو مثل
ذلك، أو احتاج الرجال
إلى فأس أو ما أشبهه،

انتهل النار تصعب عليك إطفاءها

للقصصى الروسى الكونت ليوتولشوى
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

بادر أحد المتزلين إلى استعارة ما يريده من جاره .
وكذلك إذا رعت بقرة مما يملكه أحد الفريقين في
أرض الفريق الآخر كان كافياً أن يعالج الأمر
بالرجاء إليها أن تمنع الماشية من اجتياز حدود الأرض
التي أعددت لها . أما الضن بما يطلب ، وأما اغتيال
حاجات الجار فأمران لم يعرفا في العهد الأول بين
أهل المتزلين المتجاورين . فلما مات كبير الأسرتين
نشأ الخلاف وكان مداره حول صفائر تافهة

كان لزوج ابنة إيفان دجاجة تبيض في الحديقة ؛
وفي أحد الأيام أزعج الأطفال هذه الدجاجة على
ما يظهر فطارت إلى الحديقة الأخرى وألقت
بيضتها هناك ؛ وذهبت زوج الابن كمادتها فلم يجد
البيضة ، وسألت حماتها وإخوة زوجها فقالوا إنهم
لم يأخذوا شيئاً . وزاد أصغر الأبناء واسمه « تارا »
على ذلك أن الدجاجة لا بد أن تكون قد ألقت
بيضتها في منزل الجيران لأنه سمع الصيحة من هذه الناحية
وأطلت فرأت الدجاجة في حديقة الجيران
سهيء مع ديك مبيتاً لها في تلك الحديقة ، فسألت
الجارة وكانت إذ ذاك واقفة بالحديقة : أليست هذه
دجاجة؟ فقالت : نعم . وطلبت إليها منمها عن تخطي
السور بين المتزلين

كان في إحدى القرى الروسية فلاح يدعى
« إيفان سترا تشيا كوف » وهو من أقوى الفلاحين
جسماً وأسدهم حالاً . وكان له ثلاثة أبناء : أما أحدهم
فتزوج ، وأما الثانى فقد عقدت خطبته تمهيداً
للزواج ، وأما الثالث فلم يشغله شغل عن فأسه ومحراثه
وكانت زوجته إيفان عاقلة صالحة الإدارة . وزوجة
ابنه مسالة صبورة على العمل . فعاشت هذه الأسرة في
وثام ولم يكن ليعلو فيها صوت غير صوت الأب
عند ما تعتوره نوبة الربو

وكان إيفان يملك في جملة ما يملكه ثلاث مهادى
ولكل منها فصيل . ويملك أيضاً خمسة عشر رأساً
من الماشية وبقرة ومجملها . وكانت المرأتان تقضيان
ساعات النهار في صنع الأحذية للأسرة وفي خياطة
الثياب والمساعدة في أعمال الحقل . ويقضى الرجال
هذه الساعات في أعمالهم الزراعية . وإذا ما قل نتاج
الأرض في عام من الأعوام اعتاضوا عن النقص
ببيع شئ من المواشى ، وبذلك سارت شئون
الأسرة على خير مايرجى

لكنه لسوء الحظ كان يقيم بالمنزل المجاور رجل
اسمه « جبريل شرومى » أو جبريل الأعرج وكانت
بينه وبين إيفان عداوة شديدة

قسيس القرية لا يكف عن وعظهما ودعوتهما إلى الصلح ، لكن أحداً لم يصغ إلى دعوة من هذا القبيل قال القسيس : « إنكما تبديان حماقة عظيمة إذ تأذنان لهذه الخصومة بالاستمرار ، ويكفيكما أن تتذكرا أن سببها بيضة . إن خسارة بيضة ليست بالشئ الذي يؤسف له . ومع أنكما تلحقان في ذكر العداوة فلا يزال أمامكما مجال للصلح والتفاهم فليذهب كل منكما إلى الآخر طالباً صفحه ، نازلاً عن حقه إن كان يحسب أن له حقاً ؛ وليس يبق الحق كما هو إذا استبقاه المرء في نفسه ، ولكنه يزيد وينمو على مر الزمن

لم يصغ الفريقان إليه لاعتبارهما إياه غير عالم بتفاصيل الخصومة ، ولأنه رجل اعتاد أن يتكلم عن السلم سواء أكان له موضع أم لم يكن وكان إيفان يقول لأصحابه : « إنه لم ينتف لحية جاره ، ولكن ذلك الجار تنف لحية نفسه ، وهو الذي مزق قميصي ... الخ »

وتبودلت القضايا بين الفريقين في المحاكم ، وفي الوقت نفسه فقدت قطعة جديدة من عربة جبريل وأتهم نساء جبريل أبناء إيفان بسرقتها ، فنشأت في المحاكم قضية أخرى ؛ وبمرور الزمن كان كل من الجارين يتهم الآخر بتهمة جديدة ، وتعلم نساؤهما هذه الطريقة ، حتى سئمت القرية وملت من شجارها وتقاضيهما

وكان أكبر أمل في نفسى إيفان وجبريل أن يسجن خصمه أو يحكم عليه بالغرامة ، وزادت حياة كل منهما مرارة . وكلنا قد لاحظ أن الكلاب إذ تضرب على المشاجرة تريد في مشاجرتها حدة ، وكذلك المتخاصمون من الناس يريدون لعدا في

قالت : « ألم تضع دجاجتنا بيضها في حديقتك ؟ » فكان الجواب : « لا علم لنا بشئ من ذلك ، وعندنا بحمد الله من البيض ما فيه الكفاية . وهل تحسبننا نأخذ ما هو ملك الجار ؟ كلا يا جارتى كلا »

غضبت الصغيرة من هذا الجواب وقالت كلمة كان الأولى ألا تقولها ، فردت عليها الجارة بكلمتين من نفس النوع ، واشتدت اللجة وساءت ، وخرجت زوجة إيفان فاشتركت في هذه المعركة الكلامية ، ثم خرجت زوجة جبريل فأرت جارتها حدة لسانها ؛ وتحول الحديث العنيف إلى شجة ، فصارت كل منهن تصيح بأعلى صوتها ؛ وانقلبت الحاجة إلى كلمات من هذا النوع : « أنت كذا ... وأنت كذا ... أنت لصة ... وأصابع الطاعون ... أنت أتلفت غربالى يوم استمرت ... ردى إلى الذى عندك ... »

والتقت الجسوم بعد هذا السباب فتمزقت الثياب ، ووصل جبريل في هذه اللحظة إلى الميدان ، فتولى الدفاع عن زوجته ؛ وجاء إيفان وابناه وانضموا إلى الجانب الآخر ؛ وكان إيفان قوياً ولم يقصر في إظهار قوته ؛ وجاء الفلاحون من المنازل المجاورة ليفرقوا بين المتشاجرين ، ولكن لم يصلوا إلا بعد أن جرد إيفان جاره من لحيته

وجمع جبريل شعره المتوف وذهب إلى محكمة الإقليم وهو بصيح : « إننى لم أرب لحيتى هذا العمر لكي ينتفها إيفان »

ولم يفت زوجة جبريل أن تذكر جارتها بأن إيفان سيسجن أو ينفى إلى سيبيريا من أجل جريمته هذه كانت هذه بداية العلاقات السيئة بين الجيران ، واستمرت الخصومات منذ ذلك اليوم ؛ وكان

وسمع إيفان هذا الجواب فعاد إلى القاضي واستشهد بالجنود، واستدعى القاضي الخصمين وقال: «لقد كانت جريمة مزرية منك يا جبريل أن تضرب امرأة وهي حبلى . ومهما يكن في نفسك من الفيظ على جيرانك فليس في الدنيا ما يبرر هذه الجريمة . ولكن إذا اعترفت بالخطأ واعتذرت عنه واصطلحت مع خصمك فأني سأعفي هذه العقوبة

وهنا تدخل كاتب المحكمة فقال إن المادة ١١٧ من قانون العقوبات لا تجيز إلغاء العقوبة بعد صدور الحكم، وإن كان الصلح يحو أثر الجريمة قبل النطق به لكن القاضي لم يلتفت إلى ملاحظة الكاتب وقال: «يكفى: أسكت فإن هذه المادة تتعلق بنا لا بك ونحن نراقب الله قبل مراقبة القانون، وقد أمر الله بالصلح بين الخصوم»

وحاول القاضي أن يقنع الطرفين بالصلح ولكنه لم ينجح لأن جبريل أصر على عدم الصلح مع أنه هو الذي ستنزل به العقوبة، وكان جوابه: «أنا رجل ليس بيني وبين الخمسين غير عام واحد ولى ابن متزوج ولم أضرب قط منذ كنت طفلاً فعند ما يأتى هذا السافل ليقاضيني ويستصدر ضدى حكماً بالجلد لا أستطيع أن أطلب الصفح منه ولتنزل بي العقوبة التي أرادها لى ولكنى سأجعلها بندم عليها

وهنا خافه صوته ولم يستطع أن يزيد بل التفت وخرج من قاعة الجلسة راغباً بإقاع العقاب بنفسه وكان بين مكان المحكمة وبين منزل إيفان عشرة فراسخ . ولذلك لم يصل إيفان إلى منزله إلا في ساعة متأخرة؛ وفي أثناء غيبته أعاد النساء الماشية من المرعى إلى الحظيرة .

الخصومة إذا غفهما الناس عليها، لأن أحدهم يعرف أن سبب هذا التعنيف هو تحدى خصمه إياه، كما يعرف السكاب أن سبب الضربة التي نالته من يد سيده هي العضة التي نالته من السكاب الآخر وكذلك كلما حكم على أحدهما بالغرامة أو بالسجن زادت عداوته وزاد عزمه على الانتقام

واستمرت الحال على ذلك ستة أعوام لم تنفخ في خلالها نصيحة القسيس وموعظته فكان لا يزال يقول: «أترك هذه الخصومة فما تليق بين جار وجار فإن عداوتكما تريد ما زدتما تمهداً لها»

وظل الجاران لا يصنيان إليه وفي بداية للعام السابع حضرت زوجة ابن إيفان عرساً حضره جبريل وشنت عليه فيه بأنه سرق جواداً، وكان جبريل سكران في هذا العرس فضربها ضربة عنيفة ألزمها الفراش أسبوعاً لأنها كانت حبلى . وسر إيفان من هذا الحادث سروراً عظيماً لأنه أتاح له الفرصة في رفع قضية جديدة وهو يقول في نفسه إنه في هذه المرة سيتخلص من جاره نهائياً بنفيه إلى سيبيريا

لكن زوجة الابن شفيت ولم تجهض، فحزن إيفان على أن القضية لم تقيد جنابة، وعزى نفسه بأن محكمة الجنج قد تحكم على الجاني بعقوبة مخزية، فرشا كلا من كاتب المحكمة وحاجبها بنصف جالون من الاثربة ليقترحا على القاضي عقوبة الجلد في هذه الخصومة

وصدر الحكم بالجلد على قارعة الطريق العام فأصبح وجه جبريل عند سماعه شديد الشحوب، وكان تعليقه عليه بعد خروجه من قاعة الجلسة إنه وإن تكن العقوبة شديدة فهو يأمل أن يذيق خصمه عقوبة أشد منها

يضرب فيضرب فيرد الضربة ضعفين ويتلقاها أربعة أضماف ؟ كلا يا بني فهذه ليست التربية الصالحة . لقد كان يتمتع كل هذا لو أن الخاطيء طلب الصفح ، لكن لماذا تسمعي وتسكتي ؟ ألا ترى وجهة الحق فيما أقول ؟ »

لم يجبه إيفان ، وعاد القسيس إلى السعال ثم استأنف حديثه فقال : « انظر إلى العلاقة بيننا وبين الأتراك ، وانظر هل تحسنت العلاقات بعد موقعة بلفنا ؟ وهل كسبنا أو كسب الأتراك شيئاً بسبب هذه الموقعة ؟ إنك وأبناءك أقوياء كالنصور ، وأنتم أغنياء ومع ذلك لا تلتذون لذة الغنى ، ولا عزة القوة ؛ وقد كان عليكم أن تقضوا الوقت الذي تقضونه في المحاكم بالزراعة أو في الدار ، وأن تقضوا ساعات المشاجرة في سمر وفي حديث . أتخبرني لماذا لم تحصدوا قمحكم إلى الآن مع أن كل جيرانكم قد حصدوا وطمحهم ؟ » ظل إيفان ملازماً للصمت ، واستمر القسيس

يقول : « أصع إلى يا بني . اركب جوادك الآن وعد إلى المحكمة فاصفح عن خصمك ، واطلب إلغاء الحكم ، وادع خصمك إلى منزلك فأولم له ولية . إن غداً عيد العذراء فانهزه فرصة للتقرب إليهم أو إلى ابنها تنهد إيفان وقال في نفسه : « لاشك في أن القسيس مصيب ، ولا شك في أن امتناعي عن المصالحة يرجع إلى جهلي بالطريقة المؤدية إليها وكأن القسيس أدرك ما جال بخاطر إيفان في هذه اللحظة فقال : « لا تتأخر يا إيفان فإن النار إن أهملتها صعب عليك إطفائها »

وكان يريد أن يزيد فأقبل نساء أسرة إيفان فرحات مبتهجات بالحكم الذي علمن بصدوره ضد جارهن . وقد انتهزن هذه الفرصة فبدأن مشاجرة

وقبل وصوله إلى منزله جلس في ظل شجرة يستعرض حادث اليوم ويتخيل حالته هو نفسه لو أنه كان في مكان جبريل . وفي هذا الحين سمع سعال القسيس بجانبه ، وظل كلا الرجلين يعمل مدة ما ، وأخيراً قل القسيس : « هل أصدرت المحكمة حكمها ؟ »

فقال إيفان : « نعم وقد حكمت بعشرين جلدة على جبريل » فبز القسيس رأسه وقال : « آذيت نفسك يا إيفان أكثر مما آذيتك ، وأي فائدة تستفيدها أنت بعد أن يجلد ؟ »

قال إيفان : « أردعه فلا يعود إلى ارتكاب جرائمه » فقال القسيس : « أية جرائم هذه ؟ ألسنتك تتركب مثلها وشرأ منها ؟ »

قال إيفان : « لكنني إنما أريد زجره وقد كاد يقتل زوجة ابني وتهدد بأن يحرق مزرعتي فلماذا أذعن له ؟ »

فتنهذ القسيس وقال : « إن البغض يا بني قد أعماه ؛ أنت ترى خطايا الغير ولكنك لا ترى خطاياك ؛ وأنت تقول إن جبريل قد آذاك فهل يمكن أن تقع خصومة بين اثنين ويكون مشارها جانباً واحداً ؟ أنت ترى أخطائه ولكنك لا ترى أخطاء نفسك . ألم تنتف لحينه ؟ لقد كانت العلاقات حسنة بين أبيك وبينه ، وكانا يتبادلان النصائح ؛ ولقد حضرت بعض المواقع الحربية وأرى أنك وخصمك أشد عداوة من فرقي الجنود في موقعة « بلفنا » وليس هذا أسلوباً للحياة . إنك أب ورئيس أسرة ، فأى درس هذا تأتمنه أبناءك ؟ لقد رأيت اليوم ابنك « تارا » يهزأ بعمته « أرينا » ولم تصنع أمه سوى أنها ضحككت منه . فهل تريد تربيته على هذه القاعدة :

رجلاً أعرج ينظر إليه ويمجى فراراً منه
صاح إيفان : « لن تستطيع الفرار مني »
وجرى فأمسك بذيل سترته ، ولكن تلك القطعة
من القماش انفصلت عن الثوب وفر الأعرج وصاح
إيفان بالخبراء أن يسمفوه

هرب جبريل وجد إيفان في اللحاق به فلما
أعياء وقف . وفي هذه اللحظة سمع صوت فرقعة
شديد والتفت فرأى البناء كله أصبح ألحوباً من النار ،
وامتدت الظلل والشعب إلى منزله ورفع يديه في بأس
إلى السماء وصاح بالجيران ، ولكن صوته خافه وهو
أشد ما يكون رغبة في موالة النداء . وأراد الجري
نخاتته قدماء وعجز عن الاستمرار على الوقوف فوقع ،
وبعد قليل ازدحم المكان بالجيران ، ولكنهم لم يفعلوا
شيئاً . وانتقلت النار من الاصطبل إلى منزل إيفان ،
ثم انتقلت بسرعة إلى منزل جبريل ثم إلى سائر منازل
القرية . واستمر الحريق طول الليل ؛ وكان أهل
القرية يتماونون على إطفائه في غير منزلي الجارين
المتخاصمين . وتولى إيفان وحده إطفاء النار في منزله
بعد أن خرج كل أهله منه وكانوا يحاولون منعه
ولكنه لم يكف حتى تطاير شعر لحيته المحترق وحتى
احترقت يده . وكان أبنائه ينادونه وهو لا يسمي
فأيقنوا أنه جن من الحزن

وأقبل الصباح وليس أنزل إيفان أثر . وجاء
القسيس يسأل إيفان : « ألم يصدق قولي يا بني ؟
من الذي أحرق القرية ؟ »
فقال إيفان : « لقد رأيته بعيني رأسي يحرق
الاصطبل »

قال القسيس : « إنني يا بني لن أعيش طويلاً
وأريد إصلاح بينكما قبل أن أموت فمن منكما
الذنب ؟ »

فحماق إيفان في وجه القسيس ولم يقل شيئاً

جديدة مع أسرة جبريل . وقلن إن زوجة ابن
جبريل تهدد بمخاطبة النائب العام وعرضها عليه
هذه القضايا بخذافيرها بل تهددت أيضاً بأن تكتب
رسالة إلى القيصر نفسه . وعند ما سمع إيفان هذه
الكلمات جد قلبه وقرر غزبه السالف على الصلح

وفي الصباح سمع صوت جبريل وهو عائد إلى
المنزل . وكان جبريل يصيح : « سأذهب وإياه إلى
الشیطان . لا بد من قتله ! »

لكن جبريل لم يقل أكثر من ذلك فاعتناظ
إيفان لا لأن هذه الكلمات قيلت عنه ولكن لأن
أكثر منها لم يقل . وكانت زوجة إيفان في هذا
الوقت تمد العشاء . ولكن « تارا » لم يكن
موجوداً بالمنزل . ودعت المرأة زوجها للمشاء ،
ولكنه ظل منتظراً عودة ابنه الأصغر وقد صرت
بخطره كلمة كان جبريل قد قالها وهي أنه يريد أن
يحرق إيفان ويحرق أبنائه

وكانت الرياح إذ ذاك تهب عنيفة ، وكان الظلام
شديداً في الطرقات ، وتأخرت عودة ابنه فخرج
إيفان للبحث عنه

وفي المزرعة رأى شيئاً يتحرك ثم يختفي وراء
شجرة ولم يميز الشبح أشدة الظلام . وذهب إلى
حيث رآه فلم يجد شيئاً . وتحسس وأرهف أذنيه
ليسمع ولكنه لم يحس وجود شيء

وترك المزرعة إلى الاصطبل فرأى وميضاً يسطع
على حين فجأة ثم يختفي ، ورأى رجلاً من الجهة التي
صدر منها الضوء وأحس في قلبه خفقاناً كرفرفة
المصفور بجناحيه . وأسرع ليمسك بذلك الشبح
فرأى وميضاً آخر من نفس الناحية . وما هي إلا
لحظات حتى علت الألاهيب ورأى إيفان حريقاً
مضطرباً على حين فجأة ، ورأى في مثل ضوء النهار

جريرة جبريل. ودهش جبريل من امتناع خصمه القديم عن التبليغ ضده. وبدأ شعوره الحديد نحوه بالخوف منه، ثم ألف منه طبعاً غير التي اعتادها، ثم امتنعت الخصومة لامتناع الاستمرار على أسبابها. واقتدى نساء الأسرتين برجليهما وجددت كل أسرة بناء منزلها وتجددت الباني المحترقة واستمر إيفان وجبريل جارين وصارا صديقين

ولم ينس إيفان نصيحة القسيس بأن النار يجب البدء في إطفائها وهي شرار، فكان كما أساء إليه أحد لم يضع الوقت في محاولة ضبطه متلبساً بجريته بل يبدأ بإطفاء الشرارة الموقدة ولم يفت إيفان، على تقدم السن، أن يبدأ حياة جديدة، وأن تكون سعيدة بالغفو وبالتسامح عبر اللطيف النشار

فقال القسيس: «تكلم قبل أن يصدر الله كلمته فيك، من منك المذنب؟»

اندفع إيفان في البكاء وقال: «أنا المذنب يا أبي» ثم جثا على ركبتيه وقال: «اعف عني يا أبي فاني خاطي، جرم»

قال القسيس: «عفا الله عنك يا بني» فاشتدت نوبة البكاء وقال: «ولكن يا أبي لا أعرف كيف نعيش بعد حدوث الذي حدث»

قال القسيس: «ستعيش وستدرك ما فقدته من ثروة إن أخلصت لله بعد يومك وسأحت المسي» ثم ابتسم وقال: «انظر يا إيفان، لا تقل من الذي بدأ بإيقاد النار فإن الله جدير بأن يعفو عن الخاطئين بادئين أو معقبين»

وأجرت الحكومة التحقيق فلم يبلغ إيفان عن

مواعيد الشتاء

لخطوط شركة مصر للطيران

ابتداء من ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٧ { من مصر إلى بغداد عن طريق فلسطين كل أربعاء وسبت
من بغداد إلى مصر عن طريق فلسطين كل خميس وأحد

ابتداء من ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ { من القاهرة إلى أسبوط والأقصر وأسوان كل اثنين وجمعة
من أسوان إلى الأقصر وأسبوط والقاهرة كل ثلاثاء وجمعة

أما الخطوط الأخرى الآتية فعلى حالها:

من القاهرة إلى الأسكندرية ثلاث رحلات يومية ذهاباً وإياباً

من القاهرة إلى بورسعيد رحلتان يومية ذهاباً وإياباً

من الأسكندرية إلى بورسعيد رحلتان يومية ذهاباً وإياباً

(رأساً والأخرى عن طريق القاهرة)

من الأسكندرية أو بورسعيد أو القاهرة إلى أسبوط رحلة يومية ذهاباً وإياباً

من الأسكندرية أو بورسعيد أو القاهرة إلى فلسطين وسوريا رحلة يومية ذهاباً وإياباً